قصَّة زواج وفلسفة المهر(١)

قال رسول عبد الملك : ويحك يا أبا محمد لكأنَّ دمك والله من عدوِّك ! فهو يفور بك ؛ لتلج في العناد ، فتُقتل ، وكأنِّي بك والله بين سَيفين قد فغرا(٢) عليك ! هذا عن يمينك ، وهذا عن يسارك ، ما تفرُّ من حتفٍ(٣) إلا إلى حتفٍ ، ولا ترحمك الأنياب إلا بمخاليبها .

هاهنا هِشام بن إسماعيل عامل أمير المؤمنين ، إنْ دخلته الرَّحمة لك ؛ استوثق منك في الحديد ، ورَمَى بك إلى دِمشق ، وهناك أمير المؤمنين ، وما هو والله إلا أن يُطعِم لحمك السَّيفَ ، يَعضُّ بك عضَّ الحيَّة في أنيابها السُّمُّ ! وكأنِّي بهذا الجنْبِ مصروعاً لمضجعه ، وبهذا الوجه مضرَّجاً بدمائه ؛ وبهذه اللِّحية مُعفَّرةً بترابها والرأس محتزّاً في يد « أبي الزُّعيزعة » جلاَّدِ أمير المؤمنين ؛ يلقيه من سيفه رَمْيَ الغصن بالثَّمرة قد ثقلتْ عليه .

وأنت يا سعيد فقيه أهل المدينة ، وعالمها ، وزاهدها ! وقد علم أميرُ المؤمنين : أنَّ عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه : لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسرَّه ، فإن لم تكرُمْ عليك نفسُك فليَكْرُمْ على نفسك المسلمون ، إنَّك إنْ هلكت ؛ رَجع الفِقه في جميع الأمصار إلى المَوالي ؛ ففقيه مكَّة عطاء ، وفقيه اليمن طاوس ، وفقيه اليمامة يحيى بن أبي كثير ؛ وفقيه البصرة الحسن ، وفقيه الكوفة إبراهيم النَّخَعِيُّ ، وفقيه الشَّام مكحول ، وفقيه خراسان عطاء الخراسانيُّ ؛ وإنَّما يتحدَّث النَّاسُ : أنَّ المدينة من دون الأمصار قد حرسها الله بفقيهها القرشيِّ العربيِّ « أبي محمد بن المسيَّب » كرامةً لرسول الله ﷺ ؛ وقد علم أهل الأرض : أنَّك حجَجت نيِّفاً وثلاثين حَجَّةً ، وما فاتتك التكبيرة الأولى في المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمت إلا في موضعك من الصَّفِّ الأوَّل ، فلم تنظر قطُّ إلى قفا رجلٍ في الصَّلاة ؛ فاللهَ اللهَ يا أبا محمد ! إنِّي والله ! ما أغشُّك في النَّصيحة ؛ ولا أخدعك عن

(١) انظر « قصص الرافعي : عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .
(٢) « فغرا » فَغَر فاه : فَتَحه .
(٣) « حتف » : موت .

الرأي ، ولا أنظر لك إلا خير ما أنظر لنفسي وإنَّ عبد الملك بن مرْوان مَن علمتَ : رجلٌ قد عمَّ النَّاس ترغيبه ، وترهيبه ، فهو آخذك على ما تكره إن لم تأخذه أنت على ما يحبُّ ، وإنَّه والله يا أبا محمد ! ما طلب إليك أمير المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى ، ولا بعثني إليك إلا وكأنَّه يسعى بين يديك ، رعايةً لمنزلتك عنده ، وإكباراً لحقِّك عليه ، وما أرسلني أخطُب إليك ابنتك لوليِّ عهده إلا وهو يبتذل نفسه إليك ابتذالاً ؛ ليصل بك رَحِمه ؛ ويُوثق آصِرته ؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به ، وبملكه ورعاً وزهادةً ؛ فما أحوج أهل مدينة رسول الله ﷺ أن ينتفعوا بك عنده ، وأن يكونوا أصهار « الوليد » فَيَستدْفِعوا شرَّ ما به عنهم غنىً ، ويجتلبوا خَيْرَ ما بهم غنىً عنه ، ولست تدري ما يكون من مَصادر الأُمور ، ومواردها ، وإنَّك والله ! إن لجَجْت في عنادك ، وأصْررت أن تردَّني إليه خائباً ؛ لتهِيجَنَّ قرَمَ[١] سيوف الشَّام إلى هذه اللُّحوم ولحمك يومئذٍ من أطيبها ، ولأمير المؤمنين تارتان : لينٌ وشدَّةٌ ؛ وأنا إليك رسول الأولى ، فلا تجعلني رسول الثَّانية . . .

* * *

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام ، وكأنَّ الكلام لا يخلص إلى نفسه إلاَّ بعد أن تتساقط معانيه في الأرض ، هَيبةً منه ، وفرقاً[٢] من إقدامها عليه ؛ وقد لان رسول عبد الملك في دَهائه حتَّى ظنَّ عند نفسه : أنَّه ساغ[٣] من الرَّجل مَساغ الماءِ العذْب في الحلْق الظَّامئ ، واشتدَّ في وَعيده حتَّى ما يشكُّ : أنَّه قد سقاه ماءً حميماً ، فقطع أمعاءَه ؛ والرَّجل في كلِّ ذلك من فوقه كالسَّماء فوق الأرض : لو تحوَّل النَّاس جميعاً كنَّاسين يُثيرون من غبار هذه على تلك ؛ لما كان مرجع الغبار إلا عليهم ، وبقيت السَّماء ضاحكةً صافيةً تتلألأ .

وقلَّب الرَّسولُ نظرَه في وجه الشَّيخ ، فإذا هو هو . ليس فيه معنى رغبةٍ ولا رهبةٍ ، كأن لم يجعل له الأرض ذهباً تحت قدميه في حالةٍ ، ولم يملأ الجوَّ سيوفاً على رأسه في الحالة الأخرى ، وأيقن : أنَّه من الشَّيخ العظيم كالصَّبيِّ الغِرِّ[٤] قد

---

(١) « قرم » : شدَّة الشهوة .

(٢) « فرقاً » : خوفاً ، وفزعاً .

(٣) « ساغ » : ساغ الشراب : هَنَأَ ، وسَهُل مدخلُه في الحَلْق .

(٤) « الغر » : الذي لا تجربة له .

رأى الطَّائر في أعلى الشَّجرة ، فطمع فيه ، فجاء من تحتها يناديه : أن أنزل إليَّ حتَّى آخذك ، وألعبَ بك . . .

وبعد قليلٍ تكلَّم أبو محمدٍ ، فقال :

يا هذا ! أمَّا أنا ؛ فقد سمعت ، وأنت ؛ فقد رأيت ، وقد روينا : أنَّ هذه الدُّنيا لا تعدل عند الله جَناح بعوضة ، فانظر ما جئتني أنت به ، وقسه إلى هذه الدُّنيا كلِّها ، فكم ـ رحمك الله ! ـ تكون قد قسمْت لي من جناح البعوضة . . .؟ ولقد دُعيت من قبلُ إلى نيِّفٍ وثلاثين ألفاً لآخذَها ، لا حاجة لي فيها ، ولا في بني مروان ، حتَّى ألقى الله ، فيحكم بيني وبينهم . وهاأنذا اليوم أُدعى إلى أضعافها ، وإلى المزيد معها ؛ أفأقبض يدي عن جمرةٍ ، ثمَّ أمدُّها لأملأها جمراً ؟ لا والله ! ما رغب عبد الملك لابنه في ابنتي ، ولكنَّه رجلٌ من سياسته إلصاق الحاجة بالنَّاس ليجعلها مَقَادةً لهم ، فيُصَرِّفهم بها ، وقد أعجزه أن أبايعه ؛ لأنَّ رسول الله ﷺ نهى عن بَيعَتين ، وما عبد الملك عندنا إلا باطل كابن الزُّبير[1] ، ولا ابن الزُّبير إلا باطلٌ كعبد الملك ، فانظر ، فإنَّك ما جئت لابنتي وابنه ؛ ولكن جئت تخطبني أنا لبيعته . . .

قال الرَّسول : أيُّها الشَّيخ ! دع عنك البيعة وحديثها ، ولكن مَنْ عسى أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذي ساقه الله إليك ؟! إنَّك لراع ، وإنَّها لرعيَّةٌ ، وستُسأل عنها ، وما كان الظَّنُّ بك أن تُسيء رعيتها ، وتبخسَ حقَّها[2] ، وأن تعضلها[3] ، وقد خطبها فارس بني مروان ، وإن لم يكن فارسَهم ؛ فهو وليُّ عهد المسلمين ، وإن لم يكن هذا ، ولا ذاك ؛ فهو الوليد ابن أمير المؤمنين ، وأدنى الثَّلاث أرفع الشَّرف فكيف بهنَّ جميعاً ، وهنَّ جميعاً في الوليد ؟!

قال الشَّيخ : أمَّا إنِّي مسؤولٌ عن ابنتي ؛ فما رغبت عن صاحبك إلا لأنِّي مسؤولٌ عن ابنتي ، وقد علمت أنت : أنَّ الله يسألني عنها في يومٍ لعلَّ أمير المؤمنين ، وابن أمير المؤمنين ، وألفافهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها ،

---

(١) هو عبد الله بن الزبير .

(٢) « تبخس حقها » : نقص منه ، وظلمها .

(٣) « تعضلها » : عَضَل المرأةَ : مَنَعَها التزوُّجَ ظلماً .

وأوباشها[١] ، ودُعَّارِها[٢] ، وفجّارها[٣] ؛ يخرجون من حساب الفَجَرَةِ إلى حساب القتلة ، ومن حساب هؤلاء إلى الحساب على السَّرقة ، والغصْب إلى حساب أهل البغي، إلى حساب التَّفريط في حقوق المسلمين. ويخفُّ يومئذٍ عبيدها، وأوباشها، ودعَّارُها، وفجّارُها في زحام الحشر ، ويمشي أمير المؤمنين ، وابن أَمير المؤمنين، ومن اتَّصل بهما ، وعليهم أمثالُ الجبالِ من أثقال الذُّنوب ، وحقوقِ العباد .

فهذا ما نظرت في حسن الرِّعاية لابنتي ؛ لو لم أضِنَّ بها على أمير المؤمنين ، وابن أمير المؤمنين ؛ لأَوْبقتُ[٤] نفسي ؛ لا والله ! ما بيني وبينكم عملٌ ، وقد فرغتُ ممَّا على الأرض فلا يمرُّ السَّيف منِّي في لحمٍ حيٍّ ! .

* * *

ولما كان غداة غدٍ ، جلس الشَّيخ في حلقته في مسجد رسول الله ﷺ للحديث والتَّأويل ، فسأل رجلٌ من عُرض المجلس ، فقال : يا أبا محمد ! إنَّ رجلاً يُلاحيني[٥] في صَداق ابنته ، ويكلِّفني ما لا أُطيق ، فما أكثرُ ما بلغ إليه صداقُ أزواج رسول الله ﷺ ، وصداقُ بناته ؟

قال الشَّيخ : روينا : أنَّ عمر رضي الله عنه كان ينهى عن المغالاة في الصَّداق ، ويقول : « ما تزوَّج رسول الله ﷺ ، ولا زوَّج بناته بأكثر من أربعمئة درهمٍ[٦] »[٧] ، ولو كانت المغالاة بمهور النِّساء مَكرمةً ؛ لسبق إليها رسول الله ﷺ ! .

وروينا عنه ﷺ: أنَّه قال: «خير النساء أحسنُهنَّ وجوهاً، وأرخصهنَّ مُهوراً»[٨].

---

(١) « أوباشها » : جمع وَبْش ، أي : سَفِلة الناس ، وأوغادهم ، وأراذلهم ، ورُعاعُهم .
(٢) « دعارها » : جمع داعر ، وهو الفاجر الفاسد الفاسق .
(٣) الضمير : راجع إلى الدنيا . (ع) .
(٤) « أوبقت » : أهلكت .
(٥) « يُلاحيني » : يُخاصمني ، ويُنازعني .
(٦) « الدرهم » : خمسة قروش . (ع) .
(٧) رواه النسائي (٦/ ١١٩) .
(٨) ذكره صاحب كنز العمال (٤٤٥٦٨) وعزاه لابن عدي عن عائشة ، وانظره في إحياء علوم الدين (٢/ ٦١) .

فصاح السَّائل : يرحمك الله يا أبا محمد ! كيف يأتي أن تكونَ المرأَة الحسناءُ رخيصةَ المهر ، وحسنها هو يُغلبها على النَّاس ؛ تكثر رغبتهم فيها ، فيتنافسون عليها ؟ .

قال الشَّيخ : انظر كيف قلت ! أهم يُساومون في بهيمةٍ ، لا تعقل ، وليس لها من أمرها شيءٌ إلا أنَّها بِضاعةٌ من مطامع صاحبها ، يُغلبها على مطامع الناس ؟ إنَّما أراد رسول الله ﷺ : أنَّ خير النِّساء من كانت على جمال وجهها ، في أخلاقٍ كجمال وجهها ، وكان عقلها جمالاً ثالثاً : فهذه إنْ أصابت الرَّجلَ الكفءَ ، يَسَّرَت عليه ، ثمَّ يسرت ، ثمَّ يسرت ؛ إذ تعتبر نفسها إنساناً يريد إنساناً ، لا متاعاً يطلب شارياً ، وهذه لا يكون برخص القيمة في مهرها إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ، ودينها ، أمَّا الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثَّمن لحسنها ، أي : لحمقها ! وهي بهذا المعنى من شِرار النِّساء ، وليست من خيارهنَّ .

ولقد تزوَّج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيتٍ ، وكان الأثاث : رحى يدٍ ، وجَرةَ ماءٍ ، ووِسادةً من أدَمٍ[1] حشوُها ليفٌ . وأوْلم على بعض نسائه بمُدَّين من شعيرٍ ، وعلى أخرى بمدَّين[2] من تمرٍ ومدَّين من سَويقٍ[3] . وما كان به ﷺ الفقرُ ! ولكنَّه يُشَرِّع بسنتِه ليُعلم النَّاسَ من عمله : أنَّ المرأة للرَّجل نفسٌ لنفسٍ ، لا متاعٌ لشاريه ؛ والمتاع يُقوَّم بما بُذِل فيه إنْ غالياً ، وإن رخيصاً ، ولكنَّ الرَّجلَ يقوم عند المرأة بما يكون منه ؛ فمهرها الصَّحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تُحمَل إلى داره ، ولكنَّه الذي تجده منه بعد أن تُحمل إلى داره ؛ مهرها معاملتُها ، تأخذ منه يوماً فيوماً ، فلا تزال بذلك عَروساً عند نفْس رجُلِها ما دامت في معاشرته . أمَّا ذلك الصَّداق من الذَّهب ، والفضَّة ، فهو صداقُ العروس الدَّاخلة على الجسم لا على النَّفْس ؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ، ويبلى ؟ أفلا ترى هذه الغاليةَ ـ إن لم تجد النَّفس في رجُلها ـ قد تكون عروسَ اليوم ، ومطلَّقةَ الغد؟! .

---

(١) « أدم » : جِلْد .

(٢) « مدّين » : مثنى مدّ ، وهو مكيال تعادل سعته (١٨) كغ من الحنطة المتوسطة الحجم .

(٣) « سويق » : طعام يُتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير .

وما الصَّداق في قليله ، وكثيره ، إلا كالإيماء[1] إلى الرُّجولة ، وقدرتِها ، فهو إيماءٌ ، ولكنَّ الرَّجلَ قبْلُ ! إنَّ كل امرىءٍ يستطيع أن يحمل سيفاً ، والسَّيف إيماءٌ إلى القوَّة ، غير أنَّه ليس كلُّ ذوي السيوف سواءً ، وقد يحمل الجبان في كل يدٍ سيفاً ، ويملك في داره مئة سيف ؛ فهو إيماءٌ ، ولكنَّ البطلَ قبْلُ ! ولكنَّ البطل قبلُ !

مئة سيف يمهَر بها الجبان قوَّتَه الخائبة ، لا تغْني قوَّته شيئاً ، ولكنَّها كالتَّدليس[2] على مَنْ كان جباناً مثله : ويوشِك أن يكون المهر الغالي كالتَّدليس على النَّاس ، وعلى المرأة ؛ كي لا تعلم ، ولا يعلم النَّاس : أنَّه ثمنُ خيبتها ، فلو عقلت المرأة ؛ لباهت النِّساء بيسر مهرها ، فإنَّها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله ، وكفَّت حماقتها أن تُفسد عليه .

فصاح رجلٌ في المجلس : أيُّها الشَّيخ ! أفي هذا من دليلٍ ، أو أثر ؟ .

قال الشَّيخ : نعم ؛ أمَّا من كتاب الله ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف : ١٨٩] ، فهي زوجه حين تجده هو ، لا حين تجدُ ماله ، وهي زوجه حين تتمِّمه ، لا حين تنقصه ، وحين تلائمه ، لا حين تختلف عليه ، فمصلحة المرأة زوجةً ما يجعلها من زوجها ، فيكونان معاً كالنَّفس الواحدة ، على ما ترى للعضو من جسمه ، يريد من جسمه الحياةَ ، لا غيرها .

وأمَّا مِنْ كلام رسول الله ﷺ ؛ فقد روينا : « إذا أتاكم مَن ترضوْن دينه ، وأمانتَه فزوِّجوه ؛ إلا تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير »[3] . فقد اشترط الدِّينَ ، على أن يكون مَرْضِيّاً ، لا أيَّ الدِّين كان ؛ ثمَّ اشترط الأمانة ، وهي مظهر الدِّين كلِّه بجميع حسناته ، وأيسرُها أن يكون الرَّجل للمرأة أميناً ، وعلى حقوقها أميناً ، وفي معاملتها أميناً ، فلا يبخسُها ، ولا يُعْنِتُها[4] ، ولا يُسيءُ إليها ؛ لأنَّ كلَّ ذلك ثلْمٌ في أمانته ، فإن ردَّت المرأة مَن هذه حاله ، وصفتُه من أجل المهر ـ تقدَّم

---

(١) « الإيماء » : الإشارة .

(٢) « التدليس » : المخادعة ، والغدر .

(٣) رواه الترمذي (١٠٨٤) وابن ماجه (١٩٦٧) .

(٤) « يُعنتها » : يُوقعها في المشقة ، والشدَّة .

إليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفتَه ؛ فوقعت الفتنة ، وفسدت المرأة بالرَّجل ، وفسد هو بها ، وفسد النَّسلُ بهما جميعاً ، وأهمِل مَنْ لا يملك ، وتعنَّستْ من لا تجد ، ويرجع المهر الَّذي هو سبب الزَّواج سبباً في منعه ، ويتقارب النِّساءُ والرِّجال على رغم المهر ، والدِّين ، والأمانة ؛ فيقع معنى الزَّواج ، ويبقى المعطل منه هو اللَّفظ ، والشَّرع .

هل علمتِ المرأة أنَّها لا تدخل بيتَ رجلها إلا لتجاهدَ فيه جهادَها ، وتبلوَ[1] فيه بلاءَها ؟ وهل يقوم مال الدُّنيا بحقِّها فيما تعمل ، وما تجاهد ، وهي أمُّ الحياة ، ومُنْشِئتُها ، وحافظتُها ؟ فأين يكون موضع المال ، ومكان التَّفرقةِ في كثيره ، وقليله ، والمال كلُّه دون حقِّها ؟

ولن يتفاوتَ النَّاس بالمال ـ تختلف درجاتُهم به ، وتكون مراتبُهم على مقداره ، تكثر به مَرَّةً ، وتقلُّ مرَّةً ـ إلاَّ إذا فسد الزَّمان ، وبطلت قضية العقل ، وتعطَّل مُوجِب الشَّرع ، وأصبحت السَّجايا تتحوَّل ، يملكها من يملكُ المال ، ويخسرها من يخسره ؛ فيكون الدِّين على النُّفوس كالدَّخيل المزاحم لموضعه ، والمتَدَلِّي في غير حقِّه ؛ وبهذا يرجع باطل الغنيِّ ديناً يتعاملُ النَّاس عليه ، ودين الفقير بهرجاً[2] لا يروج عند أحدٌ ؛ وليس هذا من ديننا ، دينِ النَّفس ، والحقِّ ، وإنَّ ألف بعيرٍ يقْنوها[3] الرَّجلُ خالصةً عليه ، ثابتةً له ، لا تزيد في منزلة دِينه قدر نملةٍ ، ولا ما دونها . والحجران : الذَّهب ، والفضة ، قد يكون شعاعهما في هذه الدُّنيا أضْوأ من شمسها ، وقمرها ، ولكنَّهما في نور النَّفس المؤمنة كحصاتين يأخذُهما الرَّجل من تحت قدميه ، ويذهب يزعم لك أنَّهما في قدر الشَّمس ، والقمر .

وهلاكُ النَّاس إنما يُقضَى بمحاولتهم أن يكونوا أناساً بعيوبهم ، وذنوبهم ؛ فهذا هو الإنسان المدْبرُ عن الله ، وعن نفسه ، وعن جنسه ؛ لا يكون أبوه أباً في عطفه ، ولا أمُّه أمّاً في محبَّتها ، ولا ابنُه ابناً في برِّه ، ولا زوجته زوجةً في وفائها ؛ وإنَّما يكونون لها مَهَالِكَ ، كما روينا عن رسول الله ﷺ : « يأتي على النَّاس زمانٌ

---

(١) « تبلو » : تختبر ، وتمتحن .

(٢) « بهرجاً » : زائفاً ، ورديئاً ، وباطلاً .

(٣) « يقنوها » : يكسبها ، ويتخذها لنفسه .

يكون هلاك الرَّجل على يد زوجته وأبيه ، وولده ؛ يُعيِّرونه بالفقر ، ويكلِّفونه ما لا يُطيق ؛ فيدخل المداخلَ الَّتي يذهب فيها دينُه فيهلِك »[١] .

* * *

وصاح المؤذِّن ، فقطع الشَّيخ مجلسَه وقام إلى الصَّلاة ، ثمَّ خرج إلى داره ، فتلقَّتْه ابنته وعلى وجهها مثلُ نوره ، قالت : يا أبت ! كنتُ أتلو السَّاعة قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة : ٢٠١] . فما حسَنة الدُّنيا ؟ قال : يا بُنيَّة ! هي تصلح أن تذكرَ مع حسنة الآخرة ، وما أراها للرَّجل إلا الزَّوجة الصَّالحة ، ولا للمرأة . . . . .

طُرق الباب ، فذهب الشَّيخ يفتح ، فإذا الطَّارق (عبد الله بن أبي وداعة) ؛ وكان يجالسه ويأخذ عنه ، ويلزم حَلقته ؛ ولكنَّه فقده أياماً ؛ فدخل ، فجلس ؛ قال الشَّيخ : « أين كنت ؟» .

قال : « توفيت أهلي ، فاشتغلتُ بها » .

قال الشَّيخ : « هلا أَخبرتنا ، فشهدناها !» . ثمَّ أخذ يُفيض في الكلام عن الدُّنيا ، والآخرة ، وشعر ابن أبي وداعة : أنَّ القبر ما يزال في قلبه حتَّى في مجلس الشَّيخ ؛ فأراد أن يقوم ، فقال (سعيد) : « هل استحدثتَ[٢] امرأةً غيرها ؟» .

قال : « يرحمك الله ! أين نحن من الدُّنيا اليوم . ومن يُزوِّجني ، وما أملك إلا درهمين ، أو ثلاثة ؟» .

قال الشَّيخ : « أنا . . . . . » .

* * *

أنا ، أنا ، أنا . . . دوَّى الجوُّ بهذه الكلمة في أذن طالب العلم الفقير ؛ فحسب كأنَّ الملائكة تنشد نشيداً في تسبيح الله يَطِنُّ لحنُه : « أنا ، أنا ، أنا . . . » .

وخرجت الكلمة من فم الشَّيخ ، ومن السَّماء لهذا المسكين في وقتٍ واحدٍ .

---

(١) رواه الخطابي في كتاب العزلة (ص١٦) عن ابن مسعود ، والبيهقي في الزهد الكبير (٤٣٩) عن أبي هريرة .

(٢) « استحدثت » : اتخذت .

وكأنَّها كلمةٌ زوَّجته إحدى الحور العين .

فلمَّا أفاق من غشْيةٍ أُذنه . . قال : « وَتفعَل ؟!» .

قالِ (سعيد) : « نعم » وفسر (نعم) بأحسنِ تفسيرها ، وأبلغِه ، فقال : قم فادع لي نفراً من الأنصار . فلمَّا جاؤوا ؛ حمد اللهَ ، وصلَّى على النَّبيِّ ﷺ ، وزوَّجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً) .

ثلاثة دراهم مهرُ الزَّوجة الَّتي أرسل يخطبها الخليفة العظيم لوليِّ عهده بثقلها ذهباً لو شاءت ! .

وغشي الفرحُ هذه المرَّة عيني الرَّجل ، وأذنيه ، فإذا هو يسمع نشيدَ الملائكة يطِنُّ لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . » .

ولم يشعر : أنَّه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدري من فرحه ما يصنع ، وكأنَّه في يومٍ جاءه من غير هذه الدُّنيا يتعرَّف إليها بهذا الصَّوت ؛ الَّذي لا يزال يطنُّ في أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا . . . » .

وصار إلى منزله ، وجعل يفكر ، مِمَّن يأخذ ؟ مِمَّن يستدين ؟ فظهرت له الأرضُ خلاءً من الإنسان ، وليس فيها إلا الرَّجل الواحد الذي يضطرب صوته في أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا . . . » .

وصلَّى المغرب ، وكان صائماً ، ثمَّ قام فأسرج[١] ، فإذا سراجُه[٢] الخافت الضَّئيل يسطع لعينيه سطوع القمر ، وكأنَّ في نوره وجه عروس تقول له : « أنا ، أنا ، أنا . . . » .

وقدَّم عَشاءَه ليفطر ، وكان خبزاً ، وزيتاً ؛ فإذا الباب يُقرع ، قال : من هذا ؟ قال الطَّارق : سعيد . . .

سعيد ؟ سعيد ! مَنْ سعيد ؟ أهو أبو عثمان ؛ أبو عليٍّ ؛ أبو الحسن ؟ فكَّر الرجل في كلِّ من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيَّب ؛ إلاَّ الَّذي قال له : « أنا . . . » .

---

(١) « أسرج » : أوقد السراج .

(٢) « سراجه » : المصباح ، والفتيلة الموقودة .

لم يخالجه أن يكون هو الطَّارق ، فإنَّ هذا الإمام لم يَطرق باب أحدٍ قطُّ ، ولم يُر منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد .

ثمَّ خرج إليه ، فإذا به سعيد بن المسيِّب ، فلمْ تأخذ عينه حتَّى رجع القبر فهبَط فجأة بظلامه ، وأمواتِه في قلب المسكين ، وظنَّ أنَّ الشَّيخ قد بدا له ، فندم ، فجاءه للطَّلاق قبل أن يشيع الخبر ، ويتعذَّر إصلاح الغلطة ! فقال : « يا أبا محمد ، لو . . . لو . . . لو . . . لو أرسلت إلي لأتيتُك !» .

قال الشَّيخ : « لأنت أحقُّ أن تؤتَى » .

فما صكَّت الكلمة سمع المسكين حتَّى أبْلس الوجود في نظره ، وغشِيَ الدُّنيا صمتٌ كصمت الموت ، وأحسَّ كأنَّ القبر يتمدَّد في قلبه بعروق الأرض كلِّها ؛ ثمَّ فاءَ لنفسه ، وقدَّر أنْ ليس محلُّ شيخه إلا أن يأمر ؛ وليس محلُّه هو إلا أن يطيع ؛ وأنَّ من الرُّجولة ألا يكون مَعرَّةً على الرُّجولة ، ثمَّ نكسَ وتنكَّس ؛ وقال بذِلةٍ ، ومسكنةٍ : « ما تأمرني ؟» .

تفتَّحت السَّماء مرَّة ثالثةً ؛ وقال الشَّيخ : « إنَّك كنت رجلاً عَزَباً ، فتزوّجْت ، فكرهتُ أن تبيت اللَّيلة وحدَك ؛ وهذه امرأتك !» .

وانحرف شيئاً ، فإذا العروس قائمةٌ خلفه مستترةٌ به ، ودفعها إلى الباب ، وسلَّم ، وانصرف .

وانبعث الوجود فجأةً ، وطنَّ لحن الملائكة في أذن أبي وداعة : « أنا ، أنا ، أنا . . .» .

* * *

دخلت العروس الباب ، وسقطت من الحياء ، فتركها الرَّجل مكانها ، واستوثق من بابه ، ثمَّ خَطا إلى القصعة[1] الَّتي فيها الخبز ، والزَّيت ، فوضعها في ظلِّ السِّراج كي لا تراها ؛ وأغمض السِّراج عينه ، ونشر الظلَّ . . .

ثمَّ صعد إلى السَّطح ، ورمى الجيران بحُصيات ؛ ليعلموا أنَّ له شأناً اعتراه ، وأنْ قد وَجَب حقُّ الجار على الجار ، وكانت هذه الحصيات يومئذٍ كأجراس التلفون

(١) « القصعة » : الصحفة تُتخذ للأكل .

اليوم . فجاؤوه على سطوحهم ، وقالوا : « ما شأنك ؟» .

قال : « ويْحَكم ! زوَّجَني سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها الليلة على غفلةٍ !» .

قالوا : « وسعيد زوَّجك ! أَهو سعيد الَّذي زوجك ! أزوَّجك سعيد ؟» .

قال : « نعم » .

قالوا : « وهي في الدَّار ؟ أتقول إنَّها في الدَّار ؟» .

قال : « نعم » .

فانثال[١] النِّساء عليه من هنا ، وهاهنا حتى امتلأت بهنَّ الدَّار ، وغشيت الرَّجل غشيةٌ أخرى ، فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك بن مروان ، وكأنَّما يسمعها تقول : « أنا ، أنا ، أنا . . . » .

* * *

قال عبد الله بن أبي وداعة : « ثمَّ دخلت بها ، فإذا هي من أجمل النَّاس ، وأحفظهم لكتاب الله تعالى ، وأعلمهم بسنَّة رسول الله ﷺ ، وأعرفهم بحقِّ الزَّوج . لقد كانت المسألة المعضِلة[٢] تعيي الفقهاء ، فأسألها عنها ، فأجد عندها منها علماً » .

قال : « ومكثتُ شهراً لا يأتيني سعيدٌ ، ولا آتيه ، فلمَّا كان بعد الشَّهر ؛ أتيته وهو في حلقته فسلَّمْتُ ، فردَّ عليَّ السَّلام ، ولم يكلِّمني حتَّى تفرَّق النَّاس من المجلس ، وخلا وجهُه ، فنظر إليَّ ، وقال :

« ما حالُ ذلك الإنسان . . . . ؟» .

* * *

أما ذلك (الإنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر وليِّ العهد ابن أمير المؤمنين ، وبين حجرة ابن أبي وداعة الَّتي تسمَّى داراً . . ! إلا أنَّ هناك مضاعفةَ الهمِّ ، وهنا مضاعفة الحبِّ .

---

(١) « انثال » : تتابع ، وكَثُر .

(٢) « المعضلة » : المشكِلة التي لا يُهتدى لوجهها .

وما بين هناك إلى القبر مدَّةَ الحياة ، سَتَخْفِتُ الرُّوحُ من نورٍ بعد نورٍ ، إلى أن تنطفئ في السَّماء من فضائلها .

وما بين هنا إلى القبر مدَّةَ الحياة ، تسطع الرُّوح بنورٍ على نورٍ ، إلى أن تشتعلَ في السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى ، وما عند الله خيرٌ ، وأبقى .

* * *

ولم يزل عبد الملك يحتال لسعيد ويرصدُ غوائلهُ[١] ؛ حتَّى وقعت به المِحنةُ ، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطاً في يوم باردٍ ، وصبَّ عليه جرَّة ماء ، وعرضه على السَّيف ، وطاف به الأسواقَ عارياً في تبانٍ[٢] من الشَّعر ؛ ومنع النَّاس أن يجالسوه ، أو يخاطبوه ، وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرَّذيلة ، وبهذه المَخزاة[٣] ، قال عبد الملك بن مروان : « أنا . . . . !» .

* * *

---

(١) « غوائله » : جمع غائلة ، وهي الداهية ، والشر .

(٢) « التبان » : ما يُسمَّى اليوم (المايو) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو سراويلُ قصيرٌ يلبسه الملاحون . (ع) .

(٣) « المخزاة » : الخزي ، وهو الذل والهوان .